الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[الفيثارة الخالدة التى عنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٤ —

طفولة ملتن ونشأته

وأحدثت الوراثة والبيئة أثرهما فى جون ملتن، فأحب الأدب وأحب الموسيقى كما أحبهما أبوه ، وظهرت فيه منذ صغره تلك النزعة الاستقلالية التى طرد بسببها الأب من كنف أبيه .

ولا ريب أن جون ملتن قد حرص على أن تنمو هذه النزعة الموروثة فى نفس ابنه ، وآية ذلك أنه لم يشأ أن يحمله على ما لا يحب فتركه وشأنه حين أعرض عن الالتحاق بالكنيسة . والحق أن نزوع ملتن إلى الاستقلال سينمو مع الزمن حتى يصبح من أبرز صفاته .

وكان إعجاب جون ملتن بابنه عظيما ، وكذلك كان إعجاب أصحاب أبيه به ، فما سمعوا أشعاره التى ينظمها وهو فى الثانية عشرة من عمره إلا أفاضوا من ثنائهم عليه ، وما رأوا إقباله على الدرس إلا تحدثوا بنباهة مستقبله ؛ وإنهم ليرون سمات العبقرية تختلج على محياه الأبلج الجميل وهو بعد فى سن اللعب واللهو ...

وأحدثت كثرة الثناء عليه أثراً قوياً فى نفسه سوف ينمو على مر الأيام ؛ فقد داخله شعور منذ طفولته أنه فوق مستوى غيره من الأطفال، وأنه سوف يغدو رجلا عظيما، وكان يقوى شعوره بنفسه وإحساسه بمقدرته كلما ازداد اطلاعه واتسع مجال ثقافته .

وكان أبوه عظيم الثقة فى كفاية ابنه ومقدرته ، فعول ألا يدخر وسعاً فى تنشئته ليكون رجلا عظيما ، فاختار له مربياً يعلمه فى المنزل هو توماس يتج ، وأرسله إلى مدرسة قريبة هى مدرسة سنت بول ؛ وكان المربى الذى يتعهده فى البيت شهرة فى فنه فائقة كما كان (لاسكندر جل) رئيس المدرسة التى ألحق بها صيت عظيم، يمتدح الناس أسلوبه وفنه فى التربية والتعليم .

وكان أبوه إذا فرغ من توثيقه ومن ألحانه يعينه بنفسه على فهم ما يقرأ ويرشده إلى الكتب التى تلائم مزاجه وطبعه ، وكذلك كان يعلمه الموسيقى إذ أنس منه إقبالا شديداً على سماع الألحان وتذوقها وتفهم تأليفها .

وشهد مربيه فى المنزل ومعلموه فى المدرسة أن عقل الصبى أكبر من سنه ، وأن له إلى الأدب ميلا قوياً ، وأن ذوقه الأدبى مولود فيه ، فهو جزء من نفسه ، وهو قوام إدراكه وحسه ، وما وقعت عينا امرىء عليه إلا تبينتا فيه شاعر الغد ؛ فالشواهد فيه على ذلك بينة متعددة ، تطالع المرء فى تأمله وتفكيره وفى عذوبة حديثه وسعة ثقافته وجمال عبارته وإشراقها ، وقدرته منذ حداثته على اختيار اللفظ الجميل وقعه فى النفس والذهن ، وانفعال نفسه للموسيقى وللبليغ من القول منثوره ومنظومه ، هذا إلى ما تم عنه ملامح وجهه الوسيم وما تنطق به عيناه الحالمتان الواسعتان من رقة وظرف وصفاء نفسى ، وما يتسم به مظهره من رشاقة وأناقة وسلامة ذوق .

وكان محيط قراءته واسعاً فى اللغة الانجليزية وآدابها . وكان للشاعر العظيم سبنسر المتوفى سنة ١٥٩٩ مكانة عظيمة فى نفسه ، تعمق دراسته وتأثر به تأثراً شديداً ، واستوعب قصيدته العظيمة أو على الأصح كتابه الشهير « الملكة الجنية » وأحاط بما فيها من خيال وجمال ، وفطن إلى ما أراده سبنسر فيها من آراء دينية وخلقية ، فقد كان كل فارس من فرسانها الإثنى عشر يمثل فضيلة من الفضائل ، وكان كل من هؤلاء الفرسان بطل فصل من فصول القصة يدور حول معنى مقصود اتخذت الحكاية وسيلة

لإبرازه وألبسه الشعر القوى الجميل لباساً ساحراً حبيباً إلى القلوب ، وكانت شخصية الفارس الأمير أثر هى الرابطة التى تربط بين فصول القصيدة كلها ؛ ولهذا كانت أهم شخصيات الكتاب وأحبها إلى القراء . ولقد كان سبنسر أعظم شعراء عصر شكسبير غير المسرحيين ، ومن أشدهم تأثيراً فى جيله ، ويعد قمة من القمم الشوامخ فى تاريخ الشعر الانجليزى كله .

وثمة شاعر آخر أقبل على قراءته الصبى المجد ، هو سلفستر المتوفى سنة ١٦١٨ أى بعد عامين من وفاة شكسبير والذى نقل إلى الانجليزية القصة الشعرية الشهيرة التى نظمها الشاعر الفرنسى دى بارتس سنة ١٥٧٨ وموضوعها يدور حول خلق الدنيا ، والتى طبعت ثلاثين مرة فى ست سنوات وترجمت إلى ست لغات . ولقد أعجب سبنسر نفسه إعجاباً شديداً بهذه القصيدة وبموضوعها . ولكم وجد فيها الصبى ملتن متعة لنفسه وبخاصة موضوعها الذى ظل خياله فى خاطره حتى ظهر بعض أثره فيما بعد فى قصيدته الخالدة الكبرى ، الفردوس المفقود . ولقد أعجب الصبى فى تلك السن بمقدرة دى بارتس الفرنسى على اشتقاق ألفاظ جديدة لمعانيه ، كما أعجب بمحاكاة سلفستر إياه فى الانجليزية ، فكان لهذه الترجمة أثرها فى ذوقه وفنه إلى جانب أثرها فى خياله وحسه .

وتطاول الصبى إلى قراءة شكسبير فقرأه على قدر ما يتسع له إدراكه ، كما قرأ بعض المسرحيات الشهيرة لشعراء المسرح النابهين غيره فى العصر الأليزابيثى .

وكان كثير المطالعة للإنجيل حتى وعت ذاكرته أكثر أجزائه ، وألف لغته وتذوقها وتأثر بها قلبه ولسانه .

ونهل مع هذا كله من مناهل الإغريق والرومان ، فى التاريخ والأدب والشعر والميثولوجيا ، وأحب النهل الأخير حباً شديداً فكان لا يمله مهما استزاد منه ، وصارت له خبرة بهذه الناحية من خيال الإغريق والرومان قل أن يتوافى مثلها لمن كان فى مثل سنه ، ولسوف يمتلىء شعره منذ حداثته بالإشارات البارعة إلى آلهة الإغريق وإلاهاتهم فيما يعرض له من وصف فيلبسه الجمال والسحر ...

هكذا نرى الصبى فى أولى مراحل ثقافته ينتقل كالفراشة الطليقة بين أفواف الربيع الأليزابيثى فيبهج نفسه جمال الربيع ، ويملأ حسه افتتان الربيع ، وترن فى جوانب سمعه ألحان الربيع ، وتستقر فى خاطره تلك الأصداء الساحرة الجميلة التى تحاوبت بها قيثارات سبنسر وسلفستر وشكسبير ...

فتطير روحه الوثابة فتطوى العصور إلى ربيع قديم أشبه بهذا الربيع الذى انطوى مهرجانه من قريب ، وذلك هو الربيع الإغريقى فتنعم روحه بزينته وقوته وسحر أساطيره وأنغام مزاميره .

وتحتزن ذلك نفسه كما تحتزن الزهرة العطر ، وتحلم تلك النفس الشاعرة أحلام الخيال والجمال حتى تصرفها عن حلمها البهيج الرؤى فترة فيها كثير من الجد ولا يكاد يوجد فيها شىء من الزينة .

ملتن فى الجامعة :

وفى السادسة عشرة من عمره تأهب ملتن ليدخل الجامعة فقد اجتاز الامتحان الذى يؤهله لها فى يسر ، وتفوق فى نجاحه تفوقا ملحوظا وأقدم مزهوا ليلتحق بكمبردج ، وكانت الكلية التى انتظم فى سلك طلابها ، والتى لبث فيها من عمره سبع سنين هى كريست ، ولسوف تفتخر تلك الكلية فيما بعد بأن كان ملتن أحد أبنائها ، ولكنها اليوم تتلقاه كما تتلقى غيره من الفتيان لا تدرى ما ذا يكون غدا من أمره .

وأقبل الفتى على كليته فرحا يداخله من الزهو ما يداخل كل يافع فى مثل موقفه ؛ يحدث نفسه فى حماس عما هو عسى أن ينهل فيها من المعرفة ويصاحب من الأقران ؛ وما هو عسى أن يأخذ منه بقسط من المناظرة والحوار وتبادل الرأى بينه وبين أقرانه وكل أولئك حبيب إلى نفسه التواقة إلى الدرس الطلابة للعلم .

وتلفت الذين سبقوه إلى الكلية يتطلعون على عادة الطلاب إلى أقرانهم الجدد فى أول الموسم ، فوقعت أعينهم من بينهم على فتى أنيق الملبس ، جميل الطلعة ، حلو السمت ، فى قسماته وسامة رائعة ، وفى ملامحه أمارات الذكاء ، وفى نظراته جد يشوبه الكبرياء ، وفى عينيه تأمل وحلم ، وفى مشيته والتفاتته هدوء ودعة ، وفى تحيته رقة ودماثة .

وسرعان ما تعرف إليه فريق منهم ، فما لبثوا أن أعجبهم اتساق أفقه وحدة ذكائه ؛ وإن كانوا يرون فيه كثيرا من الاعتداد بنفسه ورأيه ، ويرون فيه كذلك حرصا شديدا ما رأوا قبل منه على قواعد السلوك واحترام النفس ، يكادون يحسونه تزمتا وانقباضا لا يرتاحون إليه ؛ وإن فيه لميلا قويا إلى الشعر ، يحفظ منه قدرا عظيما ويشير إلى مواضع الجمال فيما يحفظ ويستمع فى شغف وطرب

إلى ما ينشد أقرانه مما غاب عنه ويعجب كيف غاب عنه ؛ ولما توثقت بينهم وبينه المعرفة رأوا فيه شابا يأخذ نفسه بقواعد الطهر والعفة وهو فى ذلك صلب الارادة لا يلين ولا يحيد .

وما لبث ملتن أن أحس أنه عابق من الآمال على الكلية أكثر مما يريه الواقع ، فأين منه أيام قراءاته فى بيته ، وأين منه حريته فى هاتيك الأيام الحلوة ؛ إنه كلما ازداد صلة بالكلية أحس فى نفسه النفور شيئا فشيئا من جوها ، والضيق من كثيرين من القائمين بأمرها ؛ ولكن ما من البقاء زمنا بها بد ، وما على المرء إلا أن يحمل نفسه على الصبر حتى ينقضى أمر بقائه ... بهذا كان يتحدث الفتى إلى نفسه ، كلما ساوره من حاله ضيق أو كدر خاطره أمر .

وكانت الكلية غداة التحق بها ملتن لا تزال فيها على الرغم من النهضة بقية من العصور الوسطى ، وذلك فى روحها وفى مواد دراستها ، وكانت أهم مواد الدراسة بها المنطق والبلاغة والفلسفة المدرسية ، واللغتين اللاتينية والأغريقية ، وشىء من علوم الرياضة ، وقليل من الفلك ، وقدر يسير من التاريخ الرومانى ومن عجب ألا يكون التاريخ الانجليزى ولا الأدب الانجليزى من مواد الدراسة ، على أنه كان لمن يشاء أن يدرس هاتين المادتين أن يفعل ذلك إذا أبدى للكلية رغبته .

ولكن على الرغم من طابع العصور الوسطى ، دبت فى الكلية روح النهضة ، فشاعت فيها رغبة الإصلاح والنهوض ، وملأ جوانبها كفاح من أجل هذا الغرض ؛ وكان دعاة الإصلاح يبتغون أن يصلحوا نواحى الحياة كلها ، التعليم والسياسة والدين والاجتماع ؛ ففى التعليم رغب فريق أن تتخلص الكلية من بقية العصور الوسطى ، وتعنى فى مناهجها ودراستها بما هو أقرب إلى روح العصر ، وما هو أدنى إلى الإنسانية والحرية الفكرية ؛ وفى السياسة تطلع المصلحون إلى إبراز حق الفرد والاعتراف بكيانه واحترام إرادته ؛ وفى الدين قوى الميل إلى البيوريتانية والبروتستنتية ؛ وإن كان ثمة خلاف قد دب بين الكلفنية والأرمينية ، أعنى بين عقيدة القدر المحتوم التى آمن بها كلفن ، وبين عقيدة قبول التوبة وغفران الذنب التى نادى بها أرمينيوس الهولندى سنة ١٦٠٣ ؛ وفى الاجتماع دعا المصلحون إلى الفضيلة وإلى محاربة الرذيلة ، وظهر أثر ذلك فى تشدد القائمين على أمر الطلبة ألا يسمحوا للفتيات اللائى يتعهدن حجرات نوم الطلاب بدخول تلك الحجرات إلا إذا غادرها أصحابها .

واستجاب ملتن لهذه النزعة الإصلاحية ، فقد صادفت هوى فى نفسه التى تعشق الحرية وتنزع إلى الاستقلال ، وتعلقت بها روحه الوثابة الفتية ؛ وبدأ بها أول شوط له فى الدفاع عن حرية الفكر ؛ ولكن ذلك أخذ يغضب عليه القائمين بالأمر إذ اتهموه بالتمرد والثورة إلا قليلا منهم ، وسبب له كراهة بعض أقرانه ممن لم يعجبه اعوجاجهم وإسفافهم وشراسة طباعهم .

لم يدع ملتن فرصة اجتماع إلا وقف ينتقد بالفلسفة المدرسية معلنا أنه لا يرى فيها أية فائدة ، ولئن اقتصرت الكلية على هذا المنهج فلن يكون من ورائه جدوى . وراح ملتن يسخر من تلك الكتب التى تدرس فى الكلية ، والتى هى آثار أشياخ ضيق الصدر من القساوسة تشم فيها رائحة الحجرات الضيقة المظلمة التى كتبت فيها ؛ ويتساءل : أليس أجدر بنا وأجدى علينا أن ندرس بدلا منها طبائع الكائنات الحية وأخلاق الناس وأحوال دول العالم ؟ ويوجه ملتن سهاما لاذعة إلى مدرسى المنطق والبلاغة ، فهم يتكلمون كما يتكلم المتوحشون والأطفال ، وإنه يراهم أقرب إلى العصافير منهم إلى الرجال ...

ويعجب الطلاب من جرأة هذا الفتى الذى عهدوه فى مجالسهم وديعاً رقيق الحاشية ، وتعجبهم حماسته وجرأته وصراحته وتمرده على القيود التى طال بها العهد ؛ ولكن المدرسين ساخطون عليه ناقمون على ثورته ، يرمونه بالغرور ويتهمونه بالشغب والعناد والعصيان ، وقد شاع أمره فيهم حتى ضاقوا به ذرعا من يعلمه منهم ومن لا يعلمه .

وأدى بالضرورة مسلكه هذا إلى الشحناء بينه وبين القائم على أمره من رجال الكلية وهو « شابل » فكان يحس أن الطالب جون ملتن يحتقره بنظراته ، ولعله يراه متوحشاً أو طفلا أو نوعا من العصافير ؛ ويرى أنه يخالف عن أمره ، فلا يؤدى ما يطلب إليه أداؤه كتابة من دروسه ، ولا يتقيد بما يرسم له من نظام فى حياته اليومية ؛ يريد أن ينصرف إلى ما يحب من قراءة ، ويعلن إلى معلمه أنه لا يقتنع بجدوى تلك العلوم التى هى تراث العصر المدرسى ، وأنه يأسف على فقدانه حريته التى نعم بها قبل التحاقه بالكلية ؛ ويرى أنه كان يجد فى مدرسة سنت بول من العلم المجدى ما لم يجد مثله هنا ، ومن الحرية ما لا يجد بعضه فى الكلية ، ومن عطف معلميه ومسايرتهم إياه إلى ما يحب ما لا يتمتع هنا بشىء منه .

(يتبع)

العجيف .